

قيم النهضة الفكرية عند طه حسين

أوجها ، لان الجو العقلي العام بدأ يكشف عن مظاهر تدعو في نظرها الى الفلج ، وتثير فيها احساسا غير مريح بأن استقرار سلطنتها واستتباب نفوذها لم يعد أمرا مضمونا . ومن هنا كانت صرامة محاكم التفتيش في ذلك العصر أشد مما كانت عليه في العصور الوسطى ، حيث لم تكن ثمة مخاوف ولا أخطار . وفي مقابل ذلك فان الفكر الجديد يبدو - أن يعيش في عصر النهضة هذا نفسه - فكرا ضعيفا هشا ، لا تمثله الا اقلية ضئيلة الشأن ، تحاول ببطولة أن تقف في وجه سلطات مستتبة عاتية . ومع ذلك فان التاريخ سرعان ما يقف في صف هذه الاقلية الضعيفة ، وسرعان ما يكتسح معادل السلطنة المتخلفة ، فيرسخ بذلك ما في النهضة من قيم تقدمية ، وتنادي القيم المتخلفة حتى تختفي الى غير رجعة .

ولست أود أن أقول ان طه حسين كان أول من نادى بقيم فكرية باعثة للنهضة في مصر ، اذ ان جهود الرواد الأوائل ، من رفاعة الطهطاوي الى جمال الدين الافغاني الى الشيخ محمد عبده ، كانت قد مهدت الطريق ، في صمت وسكون حيناً ، ووسط ضجة عالية حيناً آخر ، لظهور أساليب جديدة في التفكير تصدم الأذهان المتمسكة بالتقديم ، وتحيي الأمل في بمت جديد . ولكن الذي أود أن أقوله هو ان طه حسين كان ، في شخصه وفي فكره ، يمثّل تجسيدا حيا لقيم النهضة الفكرية على نحو لم يستطع أي من هؤلاء السابقين عليه أن يحققه . كما انه هو الذي استطاع ان ينقل هذا الصراع ، من المستوى الضيق الذي كان عليه من قبل ، الى مستوى أوسع وأرحب بكثير ، ويجعله جزءاً من التكوين الفكري لمصر كامل . بفضل طه حسين أصبح الصراع الذي هو الأزم لاهود النهضة الفكرية ، حقيقة أساسية من حقائق العصر ، وموضوعاً من أكثر موضوعاته تداولاً ، بعد ان كان هذا الصراع محصوراً في أوساط محدودة نون ان تعرف الجماهير العربية عنه شيئاً ، ودون ان تشارك فيه بالقبول او الرفض .

والحق ان تكوين طه حسين ، اجتماعياً وفكرياً ، كان يؤهله لكي يقوم بهذا الدور خير قيام . ففي عصره كان هناك مفكرون آخرون دعوا بدورهم الى قيم جديدة ، وكرسوا جهودهم في ميدان الفكر لكي يخلصوا مجتمعهم من حالة التخلف العقلي ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يمارسوا تأثيراً مماثلاً لذلك الذي مارسه طه حسين ، اذ كان هؤلاء (مثل احمد لطفي السيد) من المثقفين الذين ارتبطوا منذ عهد مبكر من حياتهم ببيئة متعلمة الى القيم الجديدة . اما طه حسين فكانت

كان عصر النهضة الأوروبية يحمل سمات محلية تنتمي الى صميم الثقافة الغربية ولا تفهم الا في اطارها الخاص . ولكنه كان يحمل أيضاً كثيراً من السمات العالية التي يمكن ان نجد لها نظيراً في أية ثقافة أخرى ، وينطوي على قيم يمكن ان يكرر ظهورها في أي مجتمع يمر بظروف مماثلة لتلك التي مرت بها المجتمعات الأوروبية . والطابع المميز لهذه القيم هو انها قيم انتقالية ، من عصر محافظ متخلف يسوده الجمود والسكون ، الى عصر متطور متقدم تشيع فيه الحركة والتجديد . ولا جدال في اننا لو شئنا ان نحدد نوع الطابع المحافظ الذي جعل أوروبا تنسم في العصور الوسطى بالجمود ، ونوع الطابع التقدمي الذي جعلها تنسم في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث بالتجديد والتقدم ، لكان لزاماً علينا ان نشير الى الخصائص التي تميز الاقطاع الأوروبي في العصر الوسيط والعوامل التي أدت الى ظهور النظام البورجوازي التجاري في أوائل العصر الحديث . غير ان في استطاعتنا ان نسقط هذه الخصائص النوعية من حسابنا ، ونحتفظ بالطابع العام الذي يميز تلك المرحلة الانتقالية ، وعندئذ يصح هذا الطابع نمطاً عاماً يمكن ان ينطبق على مجتمعات كثيرة ، ويقود من المفيد الى أقصى حد ان نطبق هذا النمط على مجتمعنا في مرحلة انتقاله الحاسمة ، التي بدأت منذ القرن التاسع عشر ، وما زالت - في عدد غير قليل من البلاد العربية - مستمرة حتى اليوم .

والحق ان صراع القيم الذي ساد عصر النهضة الأوروبية ، كان يلج على نهضتي بلا انقطاع كلما استرجعت صورة طه حسين . فالسمة التي تلخص دور طه حسين في الفكر العربي عامة ، والمصري خاصة ، خلال نصف القرن الذي كانت فيه شخصيته مهيمنة على حياتنا الأدبية والفكرية ، هي - في رأيي - انه واحد من نماة عصر من عصور النهضة ، وفي حياته وصراعاته ومعاركه تتمثل جميع الخصائص التي تميز عصور الانتقال الفكري الحاسم ، ومن هذا المنظر يمكننا ان نفهم طه حسين على افضل وجه ، وأن نحدد موقعه من عصره ومن عصرنا الحاضر ، ونستخلص ما سيظل طه حسين يمثله من قيم باقية .

ولعل ابرز ما تتصف به عصور النهضة هو ان التقديم فيها لا يكون قد اختفى في الوقت الذي يكون الجديد فيه قد بدأ يتولد . بل ان عصور النهضة الحقيقية هي تلك التي تكون فيها سطوة القديم على أشدها ، لا لشيء الا لان بذور الجديد قد بدأت تظهر . ففسي عصر النهضة الأوروبية بلغت شراسة السلطات الرجعية الكنسية

جلوره تنتمي الى نفس البيئة التي تنشئ بين أركانها القيم المتخلفة، وكان كل شيء في نشأته يوحى بأنه لن يكون سوى صوت آخر من بين ملايين الأصوات التي تسبح بحمد هذه القيم ليل نهار . وكان هذا هو موضع الطرافة في شخصيته ، وهو الذي أتاح لدوره الثقافي أن يكون أكثر فعالية . فما الذي كان يتوقع من ريفي ضرير ينتمي الى أسرة متوسطة أو أقل من المتوسطة ، ويتلقى تعليما دينيا في معاهد يقف على رأسها الأزهر - ما الذي كان يتوقع من شخص كهذا سوى أن يكون فقيها أو مقرئا أو معلما في قرية ، على أحسن الفروض ؟ ومع ذلك ، فإن حدوث كل هذا القدر من التحول في عقل شخص نشأ هذه النشأة وتكون هذا التكوين هو الذي يمكن أن يأتي بنتائج خطيرة حقا . فهو ليس غريبا عن القيم المحافظة ، بل أنه ينتمي الى صميم البيئة التي أفرزتها وما زالت تفرزها الى اليوم ، ومع ذلك فهو متمرد عليها ، وتمرده ليس خارجيا وإنما هو داخلي ، وهو ليس عزوفا واحتقارا وإنما هو تحول باطن في رأس شخص كان كل شيء في حياته يدعوه الى أن يكون محافظا كبيئته . ولذلك فإن ثورة شخص كهذا على التقاليد البالية تكون أكثر فعالية الى أبعد حد من ثورة ذلك الذي يترفع عن هذه التقاليد لأنه ينظر إليها من أعلى ، ومن بعيد .

كان هناك شيء يرمز الى العصر بأكمله في ذلك الجهد المزدوج الذي كان طه حسين يقوم به ، حين كان يستمع الى دروس الشيخ الرصفي في الأزهر صباحا والى دروس المستشرق فليليو في الجامعة المصرية القديمة مساء ، ولا بد أن هذين المصدرين من مصادر التعليم كانا يتصارعا في داخله مثلما كانت تتصارع ثقافتان كاملتان داخل مجتمعه الشرقي كله . وكان هناك شيء رمزي في حصول طه حسين ، عام 1914 ، على أول دكتوراه من الجامعة المصرية في موضوع متعلق بشعر أبي العلاء ، إذ كانت القيم الأكاديمية الجديدة قد بدأت تبرز عنده - وفي مجتمعه بأسره - من تربة التراث القديم . وكان هنالك شيء رمزي في زواج الأزهرى ذي العمامة من فرنسية مثقفة ، وفي نظراته إليها ، حتى اللحظة الأخيرة ، على أنها مصدر النور في حياته . كانت شخصيته ، ووقائع حياته ، تجسيدا لقيم الالتقاء بين ثقافتين ، والانتقال بين عهدين .

في قيم عصر النهضة إذن ، بالمعنى الذي حددناه لهذا اللفظ ، نستطيع أن نجد مفتاح شخصية طه حسين ، والمدخل الى معرفة موقعه التاريخي في ثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه . وما علينا ، لكي ندعم هذا الرأي ، إلا أن نحلل القيم التي دافع عنها طه حسين ، واحدة تلو الأخرى ، ونسجدها جميعا قيما مميزة لمصور النهضة الفكرية ، والتحول الثقافي في أي مجتمع .

وإذا كنت خلال هذا التحليل سأقرب بين طه حسين وبين ديكرات ، كما فعل الكثيرون ، فلن يكون ذلك لأن كلا منهما كان عقلانيا ، أو كان من أصحاب مذهب الشك ، بل لأن ديكرات كان بدوره تجسيدا لقيم النهضة الفكرية الأوروبية . صحيح أنه ، في نظر الكثيرين ، يتجاوز عصر النهضة بالمعنى الفني الدقيق ويقف بكلنا قدميه على أرض العصر الحديث ، غير أن الصراع المميز لعصر النهضة بين القيم الجديدة والقيم القديمة كان حقيقة أساسية في تفكيره ، بل أن من الشراح - مثل فيلسون - من عدّه آخر الوسيطيين ، مثلما أن منهم من رآه أول المحدثين . ومن هذه الزاوية وحدها أعدّ المقارنة بين طه حسين وديكرات شيئا مجديا .

إن القيمة الأولى في عصر النهضة - أيا كان هذا العصر - هي الصراع مع الماضي . ذلك لأن الماضي ، كما قلنا من قبل ، يظل في عصر النهضة قوة حية يعمل لها الفكر ألف حساب . ولا بد أن يتذكر المرء سخط ديكرات على التعليم السائد في عصره ، حين يعود بذكرته الى تمرد طه حسين على العلم الذي تلقاه منذ صباه حتى شبابه

المبكر . فقد تلقى طه حسين هذا العلم من أفضل منابعه - وهل هناك ما هو أفضل من الأزهر منبعا لهذا العلم ؟ - ومع ذلك أحسّ بعدم الرضا عن أسلوب التعليم وعن مضمونه ، وكان في ثورته على التعليم شبيها كل الشبه بديكرات ، الذي تلقى علوم العصور الوسطى على يد أفضل معلميها ، وسرعان ما تمرد على أسلوب التعليم المباشر والحفظ الحرفي لآراء الغير ، وعلى التعليم المشوهة التي لا يقوم عليها دليل ، والتي يطلب الى الدارس أن يؤمن بها دون مناقشة .

ولقد كانت نتيجة هذا التمرد ، عند طه حسين ، هي وقوفه موقف التحدي من أساليب التفكير الخرافي كما كانت شائعة فسي قريته ، وكان في هذا التحدي المبكر ما يشهد بأن ذلك التنوير الذي انتهى إليه لم يكن حصيلة إقامته في فرنسا وإطلاعه على الثقافة الغربية ، بل أن هذا التنوير كان حادثا لا محالة ، وكل ما أدى اليه اتصاله الوثيق بثقافة الغرب إنما كان صقل اتجاهات كانت بذورها قد ظهرت لديه منذ صباه ، بفضل قدرته العقلية الخاصة ، لا نتيجة لآية مؤثرات خارجية . فحين دخل طه حسين في معارك مع فقهاء الريف حول كرامات الأولياء ، وحين اشتدت حدة الخصومة حتى اشتهر بين أهل القرية بالبروق ، وحين تمرد على شيوخ الأزهر وضاق ذرعا بتعاليمهم الفجة وبالطرق البالية التي يتبعونها في تلقين هذه التعاليم - حين فعل هذا كله لم يكن قد خطا خطوة واحدة خارج أرض بلاده ، وخارج ثقافته المحلية ، ومن ثم فإن اتصاله بالثقافة الغربية كان في واقع الأمر نتيجة لاستنارته ، لا سببا لها .

والحق أن كلا من طه حسين وديكرات كان يحارب جهالة العصور الوسطى ممثلة في المتزمتين من رجال الدين وفقهاء العصر . وهذا الاتجاه بعينه هو الذي بدأت به الحياة العقلية أو الروحية لدى أي قطب من أقطاب النهضة الفكرية ، في أي مجتمع . وكان تهكم طه حسين من فقهاء الأزهر هو الرمز الحي للنزوع الضروري الى هدم القديم في مجتمع يبحث لنفسه عن مكان في عالم عصري . صحيح أن هدم القديم لا يصبح غاية في ذاته ، عندما تستتب القيم الجديدة ويكتسب لها النصر ، بل تصبح النظرة السائدة الى القديم أكثر تسامحا ، وأميل الى وضعه في إطاره التاريخي وإدراك مزاياه الإيجابية بالنسبة الى عصره . ولكن في عصور الانتقال والصراع لا يكون هناك مفر من مهاجمة القديم بقسوة ، مثلما فعل ديكرات وبيكن مع أرسطو ومع أساليب التفكير المدرسية . ومثل هذا الهدف كان قطعاً في ذهن طه حسين حين خاض معاركه الشهيرة ضد سلطة القيم الفكرية التقليدية .

ولقد لخص طه حسين موقفه تلخيصا صريحا ، مباشرة ، حين قال في مستهل كتاب « الشعر الجاهلي » - ذلك الكتاب الذي أثار أكبر قدر من الضجة تعرض له طوال حياته - « أريد أن اصطنع هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكرات للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الدهن مما قيل فيه خلوا تامسا » . ولم تكن إشارة طه حسين الى تلك « القاعدة الأساسية » من قواعد المنهج الديكراتي مصادفة على الإطلاق ، إذ أن هذه « القاعدة الأساسية » هي التي جلبت لديكرات مشكلات لا حصر لها مع رجال اللاهوت في عصره . فقد أحسوا بأن الدعوة الى « أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل » قد لا تنسحب على الفلسفة وحدها ، وقد تمتد الى أمور تسي صميم العقيدة الدينية ، وشعروا بأن « خلوا الدهن خلوا تاما » مما كان يقال من قبل قد يعني مراجعة أمور كثيرة لم يكونوا يريدون لها أن تراجع ، ومن هنا دب القلق الى نفوسهم وأخذوا يشيرون العواصف في وجه ديكرات . وأغلب الظن أن العواصف التي أثارها كتاب طه حسين الذي استهل بمثل هذا التقديم

كانت ، في حقيقتها ، ترجع الى شعور مماثل بالقلق لدى من يتصبون انفسهم حراسا على التراث وحماة له ، ازاء تلك الدعوة الجريئة الى مراجعة « كل شيء » ، والبدء فيه من جديد وكأنه لا ماضي له ولا تاريخ .

وربما بدا لنا ، ونحن في معرض الحديث عن موقف التحرر من الماضي ، الذي اتخذته كل من طه حسين وديكارت ، ان الثاني كان على حق في دعوته الى البدء من جديد ، وكان الذهن خال خلوا تاما من أي شيء قيل في أي موضوع يبحثه ، على حين ان الاول لا يستطيع ، وهو في القرن العشرين ، ان يردد دعوة كهذه . ففي عصر ديكارت ، حين كان التراث الفكري هزيلا بحق ، كان من واجب المفكر ان يدعو الى تطهير الذهن من كل ما قاله الاقدمون ، اما في القرن العشرين ، بعد ان أحرزت المعرفة كل هذا التقدم ، فكيف يدعو مفكر الى مثل هذه البداية الجديدة ، ويتنكر لتراث المعرفة المتراكم عبر قرون العصر الحديث ؟ علسى ان واقع الامر هو ان طه حسين لم يكن يعيش في القرن العشرين الا بحساب الارقام فحسب ، وكان يعلم حق العلم ان البيئة التي يعيش فيها ما زالت ، في معظم مظاهر حياتها ، تعيش في صميم العصور الوسطى ، ومن هنا فانه لما كان قد عاش نفس المشكلات التي عاشها ديكارت ، فلم يكن من المستغرب ان يكون رد الفعل الذي تعرض له ، والاحطار التي واجهها ، مشابهة لما تعرض له ديكارت وواجهه .

والوجه الآخر للاتجاه الى التحرر من الماضي ، هو نزع هالة القداسة عن التراث الفكري والادبي . وتلك قيمة من أرفع القيم الفكرية التي كرس طه حسين حياته للدفاع عنها . فهو يقول في نفس المقدمة التي اقتسمنا منها منذ قليل « يجب حين نستقبل البحث على الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتها ، وان ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، ولا ندعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح » . وهذا الدفاع الجيد عن المنهجية العلمية والعقلانية ينصب هنا على ميدان كانت آفته ، ولا تزال ، هي تلك الهالة من التقديس التي تجعل معظم الدراسات المتعلقة بتراثنا التاريخي أو الفكري أو السياسي أو الديني بعيدة كل البعد عن روح العلم الصحيح . فقد أدرك طه حسين خطورة الخلط بين البحث العلمي والتقديس ، ونبه الى ان من يكتبون في الموضوعات المتعلقة بالتراث يهدفون الى التبرير اكثر مما يهدفون الى الكشف عن الحقائق ، وانهم يبدؤون أبحاثهم وقد ارتسمت في أذهانهم نتائجها مقدما : فلا بد ان تؤدي هذه الابحاث الى حفظ المقدسات ، ولا بد ان تبرر كل الوقائع « الرسمية » التي يعترف بها التراث ، ولا بد ان تتجاهل كل ما من شأنه جعل هذا التراث « انسانيا » معرضا - ككل شيء انساني - للخطا والزلل . بل اننا لا تقتصر على ان نطبق هذه « الضوابط » على انفسنا ، وانما نطالب الآخرين بها ، ونهاجم بعض المستشرقين مهاجمة قاسية لا لانهم ذوو أهداف سياسية خفية ، أو لانهم يفتقرون الى الموضوعية أو الروح العلمية ، بل لانهم يعرضون تراثنا على انه تراث انساني عادي ، ولان مشاعرنا الدينية الخاصة لا تعمر قلوبهم ! كل هذه معان لا بد ان طه حسين قد تنبه اليها حين دعا الى نسيان العواطف القومية والدينية عند دراسة الادب ، ولا بد انه كان يؤمن بضرورة تطبيقها في ميادين اخرى كثيرة اوسع من ميدان الادب ، بدليل انه يدعو الى دراسة التاريخ الاسلامي بمنهج اجتماعي ، ويقدم في هذا الصدد محاولات لها قيمتها العلمية الكبيرة ، كما يدعو الى دراسة الحركات والثورات التي يعدها المؤرخون الرسميون « منحرفة » ، كثورة الزنج وغيرها من حركات الخوارج ، والى التماس مصادر واصل لفكرة العدالة الاجتماعية في امثال هذه الحركات الاسلامية الاصلية ، بدلا من التماسها في

تاريخ الغرب وحده (انظر في كتاب « ألوان » مقال : « ثورتان ») . والوجه الآخر لهذا المنهج الفكري المتحرر هو العقلانية ، التي دافع طه حسين عنها دفاعا صريحا في كثير من كتبه ، وان كان دفاعه الاعم - في رأيي - هو ذلك الدفاع غير المباشر ، الذي يتمثل في نوع النماذج التي اختارها موضوعا لدراسته . فاهتمامه بابي العلاء ، وابن خلدون ، والخوارج ، وديكارت ، يدل على التزام اصيل بعقلانية التفكير . ولولا انه كان نصيرا متحمسا للعقل لاختار مسن التراث ما يرضي النزوع اللاعقلي للانسان ، لا سيما وان النزعات اللاعقلية هي « ممثلة الاغلبية » في هذا التراث .

وكما ان دعوة ديكارت الى مراجعة كل المعارف الموروثة واحضارها امام « محكمة العقل » قد جرت عليه من العواقب ما جعله يتخذ من الحذر شعارا له ، ويقول كلمته المشهورة : « انني أسير خلف قناع Larvatos prodeo » ، فكذلك حاول طه حسين ، بعد ان تعرض لهجوم غاشم جاهل ، ان يلتزم الحذر في بعض كتاباته الجريئة ، وعلى رأسها « المذبذبون في الارض » ، ولكن قناع الحذر لم يحل دون مواصلة الهجوم عليه ، لا سيما بعد ان اضاف هذا الكتاب بعدا اجتماعيا الى البعد الفكري التحرري لثورته على القديم .

ولعل القيمة الكبرى التي تكمن من وراء هذا كله ، وتقدم الاساس الذي ترتكز عليه كل القيم السابقة ، هي ما يمكن ان نسميه بالنزعة الانسانية في فكر طه حسين . هذه النزعة تعد واحدة من القيم الاصلية لعصور النهضة ، وهي التي كانت تحفز أقطاب هذه العصور الى مهاجمة التعصب وضيق الافق والدفاع عن التحرر والعقلانية . ذلك لان العقل بطبيعته عالمي النزعة ، امامه يتساوى الناس جميعا ، وما داموا يحتكمون اليه فان يتحزبوا أو يتفرقوا شيئا ، بل ستظل اختلافاتهم تدور في اطار من الفهم والاحترام المتبادل .

ولقد كان عصر النهضة الأوروبية عصر « نزعة انسانية » بالمعنى الصحيح . وحين أقول ذلك لا أعني حركة « الدراسات الانسانية » Humanism التي كانت في حقيقتها حركة ادبية تهدف الى نشر النصوص القديمة بصورة علمية محققة ، بل أقصد ذلك النزوع العالمي الذي كان يسيطر على عقل أقطاب ذلك العصر ووجدانهم . فهؤلاء رجال تجاوز تفكيرهم نطاق المجتمعات التي كانوا يعيشون فيها ، والبلاد التي كانوا ينتمون اليها ، وأصبحت أحلامهم وآمالهم تتعلق « بال بشرية » جمعاء . وكانت مصادر الثقافة التي ينهلون منها متنوعة أشد التنوع . ولعل مما له أبلغ الدلالة في هذا الصدد ان الثقافة العربية كانت من اهم هذه المصادر ، وان هؤلاء الرجال لم يكونوا يخجلون من الاعتراف بأهمية هذا المصدر ، واننا نحن انفسنا ننظر الى تأثير المعرفة في عصر النهضة بالثقافة العربية وبالعلم العربي على انه من مظاهر اتساع أفق هؤلاء الناس ، ولا نصيب عليهم انهم استمدوا معارفهم من « ثقافة مستوردة » كما نقول الآن عن أولئك الذين يؤمنون بوجود ثقافة عالية ويدعون العرب المعاصرين الى استيعابها بعمق . فحين كانت العربية جزءا أساسيا من « الثقافة العالمية » كانت هذه الاخيرة خيرا وبركة ، وكان اقتباس الآخرين لها أمرا يستحق الثناء ، أما حين أفلت زمام « الثقافة العالمية » من ايدينا ، فقد أصبحت شرا كلها ، وأصبح ينظر اليها كما لو كانت وباء ينبغي الفرار منه .

ولقد بلغ من تحمس طه حسين للثقافة الانسانية العالية ، انه دعا الى التفتح للثقافات جميعا ، حتى أبعدنا عنا جنورا . ففقد كان ، على سبيل المثال ، من أكبر أنصار الادب اليوناني القديم ، ودافع دفاعا مجيدا عن تدريس الآداب واللغات الكلاسيكية في الجامعات المصرية ، وبذل جهدا ضخما من أجل نشر المعرفة بهذه الآداب بين القراء العرب ، مع علمه بان تلك الآداب ، اذا كانت جزءا من تراث المثقف الغربي ، فهي بعيدة عن المثقف العربي بعدا مزدوجا : لانها قديمة زمنا ، ومختلفة حضاريا . ومع ذلك كان طه حسين يشعر

بان كل كسب مستمد من الثقافات العالمية يمكن ان يعود علينا بنفع جزيل لو عرفنا كيف نهضمه ونستوعبه ، ولم يكن يؤمن بان للحواجز القومية أهمية أساسية اذا كان الامر متعلقا بتراث انساني رفيع .

ففي ضوء هذه النزعة العالمية يتبدى طه حسين مفكرا انسانيا استوعب تراثه القومي وأنتج فيه العديد من الروائع ، واتسع افقه للتراث العالمي فنقله الى بني قومه ودافع عنه بنفس الحماسة التي كان يدافع بها عن ثقافة أجداده . وبرغم ان هذا المفكر الانساني كان أزهريا سابقا فقد اتهمه خصومه بالارتداء في احضان الثقافة الغربية والتسكك لثقافة الاجداد ، مع ان هؤلاء الخصوم لم يقدموا - مجتمعين - الى ثقافة الاجداد هذه قدرا ضئيلا من الخدمات التي قدمها لها طه حسين . على ان هناك من حساوا - في الطرف المضاد - ان يعطوا لكتابات طه حسين مضمونا ايدولوجيا يتمشى مع الاتجاهات الاشتراكية الحديثة ، ووجدوا في بعض كتاباته ، ولا سيما « المذبذبون في الارض » ما يوحي بذلك ، ولكن حقيقة الامر ان النزعة الانسانية كانت ، في هذه الحالة بدورها ، هي التي أدت به الى اتخاذ موقف الدفاع عن الطبقات المضطهدة ، ولم يكن للايدولوجية دور في موقفه هذا ، الا اذا كان ذلك دورا غير مباشر الى ابعد حد .

لقد ظهر طه حسين في وقت كانت فيه بلاده احوج ما تكون الى هذا اللون من الفكر المتفتح على العالم ، ومن القيم الفكرية البشرية بالتحول من الجهالة والتخلف الى نور العقل . واليوم بعد ان ودنا طه حسين ، أصبح من حقنا ان نتساءل : هل نحن ما زلنا في حاجة الى القيم التي نذر طه حسين حياته للدفاع عنها ؟

في اعتقادي ان القدر الاكبر من تلك القيم ما زال في حاجة الى المزيد من الدفاع ، ومن الكفاح . وقد يوحي هذا بان طه حسين لم ينتصر في معركته ضد قوى التخلف ، ولكني افضل ان اعبر عن هذه الحقيقة بالقول ان المعركة التي بدأها ، وقطع منها شوطا طويلا ، ما زالت مستمرة .

فما زلنا ، حتى اليوم ، في حاجة الى استيعاب ذلك الدرس البليغ الذي تعلمنا اياه معارك طه حسين الفكرية ، واعني به وجوب الفصل بين الدين وبين المؤسسات التي تدعي احتكاره ، ووجوب الفصل بين التراث وبين الهيئات التي تتصور نفسها حارسة له ، قيمة عليه . فقد هاجم الأزهر بعنف ، ولكنه كان مخلصا للدين مدافعا عن قيمه الرفيعة . وهاجم النظرة الضيقة الافق الى التراث ، وسعى الى فهمه برحابة ذهن بعد نزع فتاوات القداسة المفرطة والتعصب الاعمي ، فأسدى بذلك الى التراث خدمة كبرى برغم اساءته الى سنته وكهانه .

واذا كانت معارك طه حسين ضد المتعصبين والجهال قد كشفت لنا عن أهمية قيمة التحرر الفكري والتسامح الانساني ، فان معاركه مع أنداده من كبار مفكري عصره قد أكسبت العصر الذي عاش فيه قيمة تعلق به حتى على عصرنا الحاضر . ذلك لان عهد المعارك الفكرية بين طه حسين من جانب ، وبين العقاد وهيكل وغيرهما من كبار الكتاب والادباء من جانب آخر ، كانت تمثل مستوى من الصراع الفكري نبحت عنه اليوم في بلادنا فلا نجد له اثرا . كانت المصارك عنيفة ، وكانت المدارس متصارعة ، ومع ذلك كان كل فريق يدعو الآخر الى منازلته ولا يحاول ان يستعدي عليه سلطة او يشير عليه نقمة او يفوت عليه فرصة التعبير عن نفسه . وكان المفروض ، والمتوقع ، ان تسير

حياتنا الفكرية بعد ذلك نحو مزيد من التحرر واتساع الافق ، ولكن الذي حدث هو اننا لا نكاد ندخل اليوم في معركة فكرية حتى يسارع احد الطرفين الى استنعاء « الشرطة » للاخر . ففي هذه الناحية كان عصر طه حسين يمثل قمة هائلة هبطنا منها ، منذ ذلك الحين ، هبوطا حادا .

كذلك كان ايمانه بالعلم وكرامة العلماء في مستوى يصعب ان نجد له فيما بعد نظيرا . ففي عصره كانت وزارات كاملة تهسد بالسقوط نتيجة لازمة ينسب فيها استاذ جامعي ، او موقف من مواقف الكرامة يتمسك به عميد احدى انكليات . وكان التعلم فسي نظره يمثل قيمة مطلقة ، وما على المسؤول عن خزنة الدولة الا ان يدبر له ما يحتاجه من الاموال . هذا ، في تصوره ، هو الشرط الاول لهوض المجتمع من التخلف ، وهو شرط ينبغي ان نتذكره كثيرا كلما تحدثنا عن رغبتنا في الارتفاع بمجتمعاتنا الى مستوى العصر .

اما القيمة التي سنظل ، على الارجح ، نصارع من اجلها طويلا بعد اختفاء طه حسين من مسرح الحياة ، فهي قيمة التفتح الفكري ، والعقلانية ، والتسامح ازاء كل الثقافات . فمنذ اوائل هذا القرن كان طه حسين يخوض معركة تدور حول السؤال : هل نعترف بالثقافة الغربية او لا نعترف ؟ وهل نجعل العقل مرشدا لنا ، ام نسلم قيادنا للخرافات والفيثيات ؟ وكان المفروض ، بعد ان انقضى من هذا القرن ثلاثة ارباعه ، ان يرتفع مستوى السؤال ، وان تدور المعركة على ارض اوسع اتقا ، ولكن المشاهد ان السؤال لا يزال هو السؤال ، والمعركة لا تزال تدور على ارض يسكن العقل منها ركنا قصيا ، ويمرح الجن والشياطين والردة والارواح في ساحاتها طولاً وعرضا . وما زلنا اذا انجزنا شيئا كبيرا ننسبه الى تدخل الملائكة وبعث الانبياء من قبورهم ، وما زلنا غير واثقين ان كان الانسان هو الذي يفعل ام ان قوى غيبية هي التي تمارس تأثيرها من خلاله . واغلب الظن ان القرن الحادي والعشرين سيحل علينا ونحن لا زلنا نتساءل ان كان ينبغي ان نأخذ من حضارة الغرب ام نكتفي بالتراث ، في الوقت الذي يكون فيه الغرب قد سكن القمر ، وزاد المريح . ولن يكون لنا من هذا التخلف خلاص الا اذا ادركنا ، كما ادرك طه حسين ، ان كل ثقافة كبرى تفقد ملكا للانسانية جمعاء ، وان التفتح العقلي هو سبيلنا الوحيد الى السير في طريق النهضة الفكرية حتى نهايته .

القاهرة

مكتبة النوري

دمشق - تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربية في

القطر السوري .